المناهج والأطر التأليفيّة فى تراثنا

د . محمد بن لطفى الصباغ

إن المكتبة الاسلامية من أغنى مكتبات الدنيا ، وهى حافلة بالجديد فى الفكر والفن المترع بالعبقرية والابداع ، والجودة والإمتاع .

وقد كانت هناك مناهج التزمها علماؤنا المتقدمون فى تآليفهم وأطر لتلك التآليف . وأود فى هذا البحث أن أعرف بالفروق الدقيقة بين منهج وآخر من مناهج التأليف هذه ، وأن نقف على خصائص كل إطار من الأطر التى صيغت ضمنها كتب تراثنا الاسلاميّ الخالد ، وأن نميز أنواع المؤلفات المتعددة التى تركها السلف ثروة غنية مازلنا نفيد منها ، وهى جديرة بأن نعتز بها أعظم الاعتزاز .

هناك مناهج للتأليف عند العلماء المسلمين ، وهناك أطر تأليفية والفرق بين الأمرين واضح من التسميتين :

ـ فالمنهج هو الخطة التى يسير عمل المؤلف وفقها ليسجل ما انتهى إليه علمه من نتائج . وقد قالوا فى تعريف المنهج :

« هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار ، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين ، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين وتعليمهم إياها حين نكون بها عارفين»[1]

ـ أما الأطر التأليفية فهى القوالب التى التزمها العلماء فى وضع الكتب فى العلوم .

هذا ولكل عمل تأليفي ـ كما هو معلوم ـ أمور ثلاثة هي :

(١) الغاية والهدف

(٢) المنهج والخطة .

(٣) الاطار والشكل .

ولن أتعرض فى هذا البحث إلى الغاية إلا باعتبار أنها عامل مؤثر فى المنهج والاطار ؛ وإن كان الحديث عنها مهما جدا لاسيا فى تقرير الدافع للتأليف ، فإن كانت الغاية ابتغاء ماعند الله من الثواب ، ونفع العباد ونشر العلم كان لذلك أثره البالغ فى انتفاع الناس بالكتاب .

مناهـج التأليف :

هناك كتب عدة فى مناهج البحث ، وهى تختلف من علم إلى علم ؛ ولذلك فإننا نجد فى المكتبة العربية الحديثة وفرة واضحة من هذه الكتب ، فهناك كتب فى مناهج البحث فى الأدب ، وكتب فى مناهج البحث فى النحو ، وكتب فى مناهج البحث فى علم الاجتماع ، وكتب فى مناهج البحث فى علم النفس ، وكتب فى مناهج البحث فى التاريخ .. وما إلى ذلك .

ولكن هذه الكتب شيء يختلف عن مناهج التأليف التى أتحدث عنها هنا ؛ ذلك لأن البحث للوصول إلى الحقيقة يختلف عن طريقة عرض هذه الحقيقة . فموضوعنا هو فى عرض هذه الحقائق وترتيبها وتعليمها ، لا فى كيفية الوصول إليها . إن التأليف يكون مرحلة تالية لمرحلة البحث . وهذا مايدل عليه تعريف المنهج الذي سبق أن أوردناه .

وتختلف مناهج التأليف باختلاف الأمور الآتية :

(أ) العلوم

(ب) العصور .

(جـ) مذاهب المؤلفين واتجاهاتهم العلمية وطاقاتهم ومواهبهم

(د) الغايات التى من أجلها ألفوا كتبهم .

أ) فللعلوم النقلية منهجها الخاص بها ، ويتميز عن منهج التأليف فى العلوم التجريبية تميزا تاما ، فلكل منهج يختلف عن الآخر تبعا لاختلاف العلوم .

فالمنهج الذى اعتمده ابن جرير الطبرى رحمه الله - المتوفى سنة ٣١٠هـ - فى تفسيره القيم مثلا يختلف اختلافا بيّنا عن المنهج الذى اعتمده ابن سينا - المتوفى سنة ٤٢٨هـ - فى كتاب «القانون فى الطب»(٢) ؛ ذلك لأن العلم النقلى يفرض منهجا خاصا لا مفر من استخدامه . وهذا المنهج هو الاعتاد على الرواية . والرواية تقتضى إيراد الأخبار بأسانيدها ليتاح للمحقق الترجيح بين الروايات ، وأخذ الصحيح منها ونبذ الضعيف والسقيم . وقد كانوا يقررون أن إيراد الأخبار بأسانيدها يبرىء الذمة ويخرج صاحبها من المسئولية والعهدة .

أما العلم الذى يعالج قضايا غير نقلية كالمرض الذى يصيب الانسان وكالبحث فى النبات والأفلاك والهندسة والرياضيات والمنطق ، فانه يفرض منهجا آخر يعتمد على معقولية الحقائق ، إما عن طريق الفكر والمنطق ، وإما عن طريق تجربتها وامتحانها عمليا . والأمثلة على كتب التراث التى تسلك المسلك التجريبى كثيرة . نذكر منها كتاب «الحاوى» لأبى بكر الرازى محمد بن زكريا - المتوفى سنة ٣٢٠هـ - ، وكتاب «**جامع مفردات الأدوية والأغذية**» لابن البيطار ، وقد ذكر ابن النديم فى «**الفهرست**» وطاشكبرى زاده فى «مفتاح السعادة» مئات الكتب فى هذا الصدد .

ومما يذكره كثير من المحدثين (٣) نموذجا على ذلك «**رسائل إخوان الصفا**» : فقد تعرضت إلى موضوعات علمية تجريبية ، ولكن هذه الرسائل منحرفة هدامة تزرع الشك وتنشر الخرافة وتشيع الزيغ (٤) .

وكذلك فان العلوم الاجتماعية واللغوية والفقهية لكل منها منهج خاص بها وإن اختلفت العصور وتغاير المؤلفون (٥) .

قال الاستاذ عبد الرحمن بدوى : (.. وتبعا لاختلاف هذه العلوم تختلف المناهج ولكنها يمكن أن ترد إلى منهجين هما :

- الاستدلال - والتجريب

يضاف إليهما منهج ثالث خاص بالعلوم الأخلاقية أو التاريخية هو منهج الاسترداد) (٦) .

ب) وللعصر تأثير واضح على مناهج المؤلفين . فانك لو وازنت بين كتابين فى علم واحد ألفا فى عصرين مختلفين لوجدت بينهما اختلافا ملموسا . ونذكر على سبيل المثال كتاب «**سيبويه**» وكتاب «**الشذور**» لابن هشام وهما فى النحو ، وكتاب «**الأم**» للشافعى وكتاب «**متن الغاية والتقريب**» لأبى شجاع وهما فى فقه الشافعية .

وهذا أمر بديهى ، لأن المؤلف لابد له من أن يتجاوب ويتفاعل مع عصره ، ولن ينجو من

الخضوع لمتطلباته الفكرية ، وللعوامل المتعددة التي ساهمت في تكوينه ، ولابد له من أن يتأثر بقضايا عصره المهمة التي يخضع لها الناس جميعا .

والتأثر بواقع العصر على نوعين : إيجابي وسلبي . تأثر يساير هذا الواقع ويمضي في طريقه ، وتأثر يتنافر معه ويمضي في طريق معاكس وكلاهما تأثر .

وأن الأعراف العلمية تتبدل من زمن إلى زمن .. والأسلوب المفضل عند العلماء في معالجة المسائل العلمية يختلف من عصر إلى عصر .

ففي العصور الأولى كان يسيطر على مؤلفينا شعور بأنهم يدونون العلم في كتب لأول مرة .. ولذا فقد كان الطابع الذي نلمحه - نتيجة لذلك - في مناهج التأليف في تلك الحقبة هو الحرص على جمع كل مايقع تحت سمع المؤلف وبصره ، مما يدخل في اختصاص علمه وموضوع كتابه ، ولايكون للترتيب والتبويب فيه إلا الأثر الضئيل .

بينما أصبح أمام المؤلفين في العصور المتأخرة تراث ضخم من الكتب التي جمعت المعلومات الكثيرة ، وأعجبوا بصبر أولئك المؤلفين على صعوبة العمل وطاقاتهم الجبارة .. وانتهى معظم المتأخرين إلى أن مجال الجمع قد انقضى وانصرم ، بل ذهب بعضهم الى أن الابداع في الفن والاجتهاد في الدين قد توقفا . فالتفتوا إلى هذه المعلومات ينسقونها وينظمونها في أبواب ، ويقعدون مافيها من قواعد ، ويجمعون الشيء إلى مثله ، ويبسطون مايحتاج إلى بسط ، ويحذفون مايرونه فضولا ، وكان عاقبة ذلك ظهور عدد من الكتب المبوبة المرتبة والمنظمة .

ومادمنا في صدد الحديث عن اختلاف مناهج التأليف باختلاف العصور فلابد من ذكر الملاحظة الهامة الآتية :

لقد خضعت الكتب لمقتضيات نشوء العلم وتطوره ونموه تدريجيا ، وليس طبيعيا أبدا أن يكون الكتاب الأول في علم من العلوم كاملا لأول مرة . إن مقتضيات نشوئه تحتم أن تكون هناك محاولات بدائية تسبق ظهور الكتاب المكتمل .. وتتكرر المحاولات .. ولاتزال تتقدم شيئا فشيئا وتنمو تدريجيا حتى تصل الى مرحلة النضج والتمام ، والدارس لتاريخ التأليف في علم من العلوم يرى مصداق هذه الملاحظة في الكتب الأولى .

جـ) ولاتجاهات المؤلفين العلمية ، ولمزاياهم الشخصية تأثير كبير في اختلاف مناهج التأليف ، فلكل مؤلف خصائص تأليفية ذاتية ، عملت في تكوينها عوامل متعددة ، يختلف بها عن غيره ممن يؤلفون في العلم نفسه وممن يعاصرونه . وأوضح ماتكون هذه الفروق إذا كان المؤلفان ممن يتمتعون بالأصالة ، وكانا إمامين من كبار المؤلفين .

ولنأخذ على ذلك مثلا كتابين ألفا في عصر واحد هو القرن السابع الهجري وفي علم واحد وهو علم البلاغة .. إننا نرى أن اتجاه كل من المؤلفين مختلف وأن كلا منهما صبغ كتابه بصبغة تختلف

عن صبغة معاصره . وهذان الكتابان هما :

- كتاب مفتاح العلوم للسكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ «القسم الخاص بالبلاغة» .

- وكتاب المثل السائر لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ .

إن للعامل الشخصى للمؤلف وزنه الكبير وأثره الواضح فى مناهج التأليف .

ويبدو الفرق أوضح عندما يعلو مؤلف فى مواهبه وقدرته وينحدر آخر فيها ولايتميز إلا بالقدرة على الجمع .. إن مثل هذه الحالة تتيح بروز الفرق بشكل أوضح وأجلى .

د) وكذلك فان للغاية التى يرمى إليها المؤلف تأثيرا كبيرا فى المنهج . فان كانت غايته تعليم الصغار كان هناك منهج يلزم بالاقتصار على إيراد الأصول الهامة والخطوط الكبرى للموضوع . ولايستقصى ولايأتى بالفروع والتفصيلات . وتراه يستبعد كل ماهو معقد من هذا الموضوع ويكثر من الأمثلة .

- وإن كانت غايته وضع مرجع موسع للمتخصصين فى هذا الموضوع استقصى . وجاء بالفروع والتفصيلات . وجمع كل مايتصل بموضوعه وكان له منهج يخالف المنهج السابق فى معظم الأمور .

- وإن كانت غايته الرد على رأى مغلوط كان له منهج ثالث .. وهكذا ..

وقد تكلم العلماء حول غايات التأليف ومقاصده :

- فعقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته فى المقاصد السبعة التى ينبغى اعتمادها كالتأليف .

قال : (ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التى ينبغى اعتمادها وإلغاء ماسواها فعدوها سبعة) :

أولها : استنباط العلم بموضوعه وتقويم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب فى الصحف لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة .

وثانيها : أن يقف على كلام الأولين وتواليفهم . فيجدها مستغلقة على الأفهام . ويفتح الله فى فهمها فيحرص على إبانه ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه لتصل الفائدة لمستحقها وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول وهو فصل شريف .

وثالثها : أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ فى كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد فى الإفادة صيته . ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح الذى لا مدخل للشك فيه ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده ..

ورابعها : أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه . فيقصد المطلع على ذلك أن يتم مانقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ولايبقى للنقص فيه مجال .

وخامسها : أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة فى أبوابها ولا منظمة ، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة فى بابها ..

وسادسها : أن تكون مسائل العلم مفرقة فى أبوابها من علوم أخرى ، فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله فيفعل ذلك ويظهر به فن ينظمه فى جملة العلوم التى ينتحلها البشر بأفكارهم .

وسابعها : أن يكون الشىء من التواليف التى هى أمهات للفنون مطولا مسهبا ، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والايجاز وحذف المتكرر إن وقع مع الحذر من حذف الضرورى لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول .. (٧)

ـ وذكر حاجي خليفة قريبا من ذلك . قال :

ثم إن التأليف على سبعة أقسام ، لايؤلف عالم عاقل إلا فيها وهى :

إما شيء لم يسبق اليه فيخترعه .

أو شيء ناقص يتممه .

أو شيء مغلق يشرحه .

أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيىء من معانيه

أو شيء متفرق يجمعه

أو شيء مختلط يرتبه

أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه (٨)

ـ ونقل الأستاذ جمال الدين القاسمي عن أبى حيان قوله :

ينبغى ألا يخلو تصنيف من أحد المعانى التى تصنف لها العلماء ، وهى :

اختراع معدوم ، أو جمع متفرق

أو تكميل ناقص ، أو تفصيل مجمل

أو تهذيب مطول ، أو ترتيب مختلط

أو تعيين مبهم ، أو تبيين خطأ (٩)

ومن الواضح أن هذه الغايات تتحكم فى مناهج المؤلفين ، وتلزمهم بخطة تحقق الغاية التى يستهدفونها .

وقد تحمل الظروف العامة السياسية والاجتماعية فى عصر من العصور المؤلفين على اختطاط نهج فى التأليف من أجل تحقيق غاية جليلة ، كما حدث عندما قامت الحروب الطاحنة بين المسلمين والصليبيين والتتار ، وكانت النكبات تستهدف ديار المسلمين ، تدمّر وتخرّب ..وتأتى على كثير من مظاهر حضارتنا . فلقد حملت هذه الظروف العامة العلماء حينذاك على التخوف على هذه الثقافة أن

تضيع البقية الباقية منها . فكان ذلك سببا لقيام منهج جديد فى التأليف هو منهج الموسوعات الثقافية الكبيرة [١٠] من نحو «صبح الأعشى» للقلقشندى و «نهاية الأرب» للنويرى و «مسالك الأبصار» للعمرى ... الخ .

وينبغى أن نقرر أثر مدرستى الأثر والرأى فى مناهج التأليف . فلقد كان لهذين الاتجاهين اللذين عرفا فى كل شعب الثقافة الاسلامية أكبر الأثر على مناهج التأليف فى كل العصور .

عرفنا هذين الاتجاهين فى الفقه ، والتفسير ، واللغة والنحو وغيرها .

أما أولها فكان يحتكم إلى المأثور ويعتمده ولايجاوزه ، ويلتزم الرواية .. وكل مايمكن بذله من جهود هو التأكد من صحة الأسانيد ثم الترجيح بين الروايات المختلفة إذا تقاربت درجاتها ، ثم التوفيق بين مدلولاتها إذا كانت من درجة واحدة ، ثم ترتيبها .

وأما ثانيها فكان يعطى العقل سلطة واسعة ، ويعمل فى المحاكمة والمناقشة وعرض القضية عرضا عقليا محضا ، ويطبق بعض القواعد الأساسية المعروفة فى علم المنطق .

وقد يغالى بعضهم مغالاة فاحشة فيعطى العقل أكثر مما ينبغى له ويحمّله مالا طاقة له به .

قال ابن خلدون : إن العلوم صنفان :

- صنف طبيعي للانسان يهتدى إليه بفكره .

- وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه .

والأول هى العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ..

والثانى هى العلوم النقلية الوضعية ، وهى كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ، ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول [١١] .

وقد تفاعل هذان الاتجاهان وأثر كل منها فى الآخر ، وكان منها فيا بعد اتجاه وسط حاول أن يجمع المحاسن الموجودة فيهما .

أنواع المؤلفات

نستطيع أن نقسم المؤلفات التى وصلت إلينا باعتبارين :

- باعتبار المقدار .
- باعتبار طبيعتها .

١ - فمن ناحية المقدار نميز ثلاثة أصناف :

أ - مختصرات : تجعل تذكرة لرؤوس المسائل وهى تعين العالم على استحضار مسائل العلم المنبثة عادة فى ثنايا البحوث ، وتفيده لأنها توقفه على أكبر قدر من عناوين قضايا العلم وخطوطها العريضة

عناصرها الرئيسية . ولكنها لا تصلح أن تكون طريقة تعليمية .

ب ـ ومبسوطات : وهى تقابل المختصرات وينتفع بها طالب العلم للمطالعة .

جـ ـ ومتوسطات : وهذه نفعها عام [٩٢] .

وقد هاجم ابن خلدون فى مقدمته المختصرات وعقد فصلا عنوانه : « كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم » .

وقال فى هذا الفصل : « ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء ، يولعون بها ، ويدونون منها برنامجا مختصرا فى كل علم ، يشتمل على حصر مسائله وأدلتها ، باختصار فى الألفاظ ، وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن . وصار ذلك مخلا بالبلاغة ، وعسرا على الفهم ، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان ، فاختصروها تقريبا للحفظ ، كما فعل ابن الحاجب فى الفقه وأصول الفقه ، وابن مالك فى العربية .. وأمثالها وهو فساد فى التعليم ، وفيه اخلال بالتحصيل ، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه ، وهو لم يستعد لقبولها بعد ، وهو من سوء التعليم كما سيأتى ، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها ، وصعوبة استخراج المسائل من بينها ؛ لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة ، فينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت ، ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم من تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة ، بكثرة ما يقع فى تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة [١٣] .

وواضح أن نقد ابن خلدون لهذا النوع موجه إلى من يضع المختصر بين أيدى المتعلمين المبتدئين ويلزمهم بدراسته .

٢ ـ ومن ناحية طبيعتها نميز ستة أصناف هى :

أ ـ كتب ذات قيمة تاريخية : وأهمية هذه الكتب للدور التاريخى الذى لعبته فى نشوء العلم ، إذ تعطينا صرة لبداية هذا العلم وتساعدنا على ادراك التطورات التى طرأت عليه بعد ذلك .

ب ـ مراجع عامة : وتشمل دوائر المعارف والمجمعات بأنواعها المختلفة .

جـ ـ مراجع خاصة : وتشمل المطولات المؤلفة فى علم من العلوم .

د ـ دراسات علمية : وهى كتب عالجت ناحية من نواحى العلم بتوسع وفصلت القول فيها .

هـ ـ كتب مدرسية : وهى الكتب التى توضع للطلاب تعرّفهم بحقائق العلم ، وتأخذ بأيديهم ليعرفوا المصطلحات المستعملة فى ذلك العلم ، ولا بد فيها من الوضوح والتركيز وضرب الأمثلة .

و ـ كتب تطبيقية : وهى كتب نافعة جدا لطلبة العلم مثل كتب إعراب الشواهد ، وكتب الفتاوى ، وبعض كتب النقد ، وكتب التمارين فى الرياضيات .

الأطر التأليفية

اقتضت الحاجة التعليمية أن توجد أطر توضع ضمنها المعلومات ، وهذه الأطر هي : المتن والشرح والحاشية والتقرير .

وهذه القوالب هي التي كانت أكثر شيوعا وتداولا بين المؤلفين وطلبة العلم . وهناك أنواع أخرى من القوالب التأليفية مثل الذيل ، والمستدرك . ولن أعرض لها الآن ، وسيقتصر حديثي على القوالب التي حتمتها الضرورة التعليمية .

١ ـ المتن :

المتن « في اللغة » : اللحم الذي يكتنف العمود الفقري عن يمين وشمال وقد يطلق على الظهر . ويذكّر ويؤنّث .

وفي الظهر متنان وهما ما يكتنفان الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم والمتنة لغة في المتن .

قال امرؤ القيس يصف فرسه :

كأن على المتنين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صلاية حنظل (١٤)

وقال يصف فرسه أيضا :

لها متنتان خظاتا كما   أكبّ على ساعديه النمر (١٥)

وقال أبو البقاء : المتن الظهر وما ينتهي إليه السند من الكلام (١٦) .

وجاء في « المصباح المنير » : « متن الشيء متانة اشتد وقوي .. والمتن الظهر .

وقال ابن فارس : المتنان مكتنفا الصلب من العصب واللحم ، وزاد الجوهري عن يمين وشمال » . هذا في اللغة . قال الشيخ نصر الهوريني : « وأما إطلاق المتن على الكتاب الذي يقابل الشرح فهو من استعمال المولدين تشبيها له بظاهر الظهر في القوة والاعتماد (١٧) .

قال الخفاجي : « والمقصود هنا بيان ما استعمله المولدون في الكتاب الأصل الذي كتب أصول المسائل ، ويقابله الشرح . وهذا لم يرد عن العرب ، وإنما هو مما نقله العرف ، تشبيها له بالظهر في القوة والاعتماد (١٨) » .

ويبدو أن المتن بمفهومه ـ لا باسمه ـ عرف من زمن متقدم غير أن إطلاق هذا الاسم تأخر عن ذلك .

ولعل منشأ إطار « المتن » كان تطورا للمختصرات ؛ ذلك لأن المختصرات كانت هي الخطوة الأولى في نشوء المتن .

وكلمة « المختصر » توحي أن هذا الكتاب الصغير الحجم اختصار لمعلومات وردت في كتب ذلك العلم أو اختصار لكتاب آخر مطول وإن كان الاختصار الثاني جاء متأخرا ، ثم جاء عصر اختصرت

فيه هذه المختصرات .

ولعلهم سموا هذه المختصرات العلمية بالمتون ؛ لأنها تتضمن المسائل الأساسية التي يُحمل عليها غيرها ، كما أن الظهر أساس للركوب والحمل (!) ويقول أستاذنا مصطفى الزرقا :

« .. ولكنها عندما ظهرت قديما كان الغرض منا حكيا وهو جمع المسائل الأولية البسيطة في متون صغيرة بعبارة سهلة لتكون مبادىء لشداة الفقه [١٩] .

ولا بد من أن يتوافر في المتن ما يأتي :

١ - أن يكون شاملا لمباحث العلم كله .

٢ - أن تذكر فيه رؤوس المسائل بشكل لا تفصيل فيه ولا توسع .

٣ - أن تكون عبارته موجزة ، وأمثلته مقتضبة .

من أجل ذلك كان الغالب على المتون صغر الحجم . وهناك من المتون ما يكون أكبر من ذلك لأنها درجات .

ثم كثرت اختصار المطولات ، فعمد عدد من المؤلفين إلى بعض الكتب المطولة فاختصروها لطلابهم في كتب صغيرة ، وكثفوا المعلومات ، وعلى تقدم الزمان أصبح المؤلفون يتبارون في ضغط المعلومات ضغطا شديدا بأوجز عبارة ممكنة ، حتى تصل إلى ما يقرب من الألغاز وتكاد كل كلمة أو جملة تشير الى بحث واسع أو مسألة تفصيلية يعملون ذلك ليحفظها الطلبة عن ظهر قلب .

ومن اقدم المتون التي وصلت إلينا :

- « الفصيح » لثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ . وقد اختار فيه مؤلفه الفصيح من كلام العرب مما يجرى في كلام الناس [٢٠] .

وللشيخ أبي سهل الهروى المتوفى سنة ٤٢١ هـ شرح عليه سماه « التلويح في شرح الفصيح » [٢١] .

- ومن المتون القديمة التي وصلت إلينا :

« مختصر الخرقي » لعمر بن حسين الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ وهو من أهم كتب الفقه المختصرة عند الحنابلة ومن أقدمها [٢٢] .

وقد اشتهر هذا المختصر وأثنى عليه العلماء ، وشرحه جماعة من اعيان المذهب ، منهم القاضي أبو على بن البنا والشيخ موفق الدين عبدالله بن احمد بن قدامه المتوفى سنة ٦٢٠ هـ وسمّى شرحه « المغنى » وهو من أهم كتب الاسلام .

- ومن المتون القديمة التي وصلت إلينا :

« اللمع » [٢٣] لابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ . وعلى هذا الكتاب شروح عدة .

قال أبو على بن البنا فى أول شرحه لـ « مختصر الخرقى » :

(وكان بعض شيوخنا يقول : ثلاثة مختصرات فى ثلاثة علوم . لا أعرف لها نظيرا : الفصيح لثعلب . واللمع لابن جنى ، وكتاب الخرقى . ماشتغل بها أحد وفهمها كما ينبغى إلا أفلح)[٢٤]

وربما كان المختصر أفضل من الأصل .

نقل أبو الحسن الشارى فى « فهرسته » عن شيخه أبى ذر أنه كان يقول : (المختصرات التى فضلت على الأمهات أربعة : مختصر العين[٢٥] للزبيدى (ت ٣٧٩) ، ومختصر الزاهر[٢٦] للزجاجى (ت٣٤٠) ومختصر سيرة ابن اسحاق لابن هشام[٢٧] (ت٢١٨) . ومختصر الواضحة[٢٨] للمفضل بن سلمة (ت ٢٩٠)[٢٩] .

ومن المتون القديمة « مختصر المزنى »[٣٠] فى فروع الشافعية للشيخ اسماعيل بن يحيى المزنى المتوفى سنة ٢٦٤هـ . وقد شرحه ابو اسحاق المروزى المتوفى سنة ٣٤٠هـ . وشرحه أيضا أبو الطيب طاهر ابن عبدالله الطبرى المتوفى سنة ٤٤٥هـ .

هذا وقد تستعمل كلمة (المتن) لتقابل كلمة (الشرح) ولا يراد بها المعنى الذى أشرنا اليه . كما تقول مثلا :

صحيح البخارى متن وشرحه ابن حجر

وحماسة ابى تمام متن وشرحها المرزوقى

والمتون على نوعين هما :

١ ـ المتون النثرية وهى الأكثر وجودا .

٢ ـ المتون الشعرية وهى المنظومات التى تنظم أبواب العلم وغالبا ماتكون أراجيز . وقد تكون على بحور أخرى . وهى نوعان : إما أن تكون نظما للعلم أو أن تكون نظما لكتاب . أما الأولى فكألفية ابن مالك واما الثانية فكنظم العمريطى لمتن الغاية .

والمتون أنواع[٣١] :

١) فمنها المختصر جدا .. وهو أكثرها .

٢) ومنها المتوسط .

٣) ومنها المفصل .

ولطريقة المتون محاسن وعيوب :

أما محاسنها فهى ضبط مادة العلم فى ذهن طلبة العلم واستحضارها دائما وقد كان الطلاب يستظهرون هذه المتون ، ويظلون يرددونها بين الحين والحين .

وعيوبها أن من اقتصر عليها كان محدود الأفق ضيق النظرة ، تغلب عليه الناحية اللفظية التى تجور على المعنى والحقائق فى كثير من الأحيان .

قال الأستاذ مصطفى الزرقا يحدثنا عن المتون فى الفقه وهذا الكلام ينطبق إلى حد ما على العلوم الأخرى . قال :

(ولكن المتون انقلبت فى العصر المبحوث عنه الى طريقة عامة تعقيدية فى تأليف الفقه حتى أن من يريد أن يترك له أثرا وذكرا علميا لايفكر أن يخدم العلم بمؤلف مستقل يعمد به إلى التجديد فى أسلوب الفقه ولغته ، وفى تنقيحه وتقسيمه ، وترتيبه ، وتبويبه ، والرجوع بمسائله المشتتة فى غير أبوابها ومناسباتها .. بل كان كل مؤلف متأخر يحصر جهده فى وضع حاشية على شرح أو شرح على متن معقد أو يضع متنا على نسق سائر المتون الاختزالية اللغزية التى تقدمته)[٣٢] .

نماذج من المتون :

١) متون قديمة :

جاء فى الخرقى : (والمأموم اذا سمع قراءة الامام فلا يقرأ بالحمد ولا بغيرها لقول الله تعالى « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . ولما روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « مالى أنازع القرآن ؟ » قال فانتهى الناس أن يقرءوا فيا جهر فيه النبى ﷺ .

والاستحباب أن يقرأ فى سكتات الامام وفيا لايجهر فيه ، فان لم يفعل فصلاته تامة لأن من كان له امام فقراءة الامام له قراءة . ويسر القراءة فى الظهر والعصر ، ويجهر بها فى الأولين من المغرب والعشاء وفى الصبح ، كلها الجهر فى موضع الجهر ، والاسرار فى مواضع الاسرار) .

وجاء فى المهذب للشيرازى : (والمستحب أن يمسح جميع الرأس فيأخذ الماء بكفيه ، ثم يرسله ، ثم يلصق طرف سبابته بطرف سبابته الأخرى ، ثم يضعهما على مقدم رأسه ويضع إبهاميه على صدغيه ، ثم يذهب بهما إلى قفاه ، ثم يردهما إلى المكان الذى بدأ منه لما روى أن عبدالله بن زيد رضى الله عنه وصف وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه » ولأن منابت شعر الرأس مختلفة . ففى ذهابه يستقبل الشعر من مؤخر رأسه فيقع المسح على ظاهر الشعر فاذا رد حصل المسح على مالم يمسح فى ذهابه) .

وجاء فى (ايساغوجى) لأثير الدين المفضل بن عمر الأبهرى من رجال القرن السابع . و(ايساغوجى) لفظ يونانى معناه الكليات الخمس . أى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام .

قال : (القول الشارح : الحد قول دال على ماهية الشىء . وهو الذى يتركب من جنس الشىء وفصله القريبين . كالحيوان الناطق بالنسبة إلى الانسان وهو الحد التام . والحد الناقص وهو الذى

يتركب من جنس الشيء البعيد وفصله القريب ، كالجسم الناطق بالنسبة الى الانسان . والرسم التام وهو الذى يتركب من جنس الشيء القريب وخواصه اللازمة له كالحيوان الضاحك فى تعريف الانسان . والرسم الناقص ، وهو الذى يتركب من عرضيات تختص جملتها بحقيقة واحدة ، كقولنا فى تعريف الانسان : إنه ماش على قدميه عريض الأظفار ، بادى البشرة ، مستقيم القامة ، ضحّاك بالطبع) .

وجاء فى الأجرومية لمحمد بن محمد الأجرومي المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

(باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر : وهى ثلاثة أشياء : كان وأخواتها ، وإن وأخواتها ، وظننت وأخواتها .

فأما كان وأخواتها فإنها ترفع الاسم وتنصب الخبر ، وهى : كان وأمسى وأصبح وأضحى وظل وبات وصار وليس ومازال وماانفك ومافتىء ومابرح ومادام وماتصرف منها نحو كان ويكون وكن ، وأصبح ويصبح وأصبح تقول كان زيد قائما ، وليس عمرو شاخصا وماأشبه ذلك .

وأما إن وأخواتها فانها تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهى : إن وأن ولكن وكأن وليت ولعل .

تقول : إن زيدا قائم ، وليت عمرا شاخص ، وماأشبه ذلك .

ومعنى إن وأن للتوكيد ، ولكن للاستدراك ، وكأن للتشبيه ، وليت للتمنى ، ولعل للترجى والتوقع .

وأما ظننت وأخواتها ، فانها تنصب المبتدأ والخبر على أنهما مفعولان لها ، وهى : ظننت وحسبت وخلت وزعمت ورأيت وعلمت ووجدت واتخذت وجعلت وسمعت .

تقول : ظننت زيدا منطلقا ، وخلت عمرا شاخصا ، وماأشبه ذلك) .

وجاء فى قطر الندى لأبى محمد عبدالله بن يوسف المعروف بابن هشام المتوفى سنة ٧٦٢هـ :

(والبدل ، وهو تابع مقصود بالحكم بلا واسطة ، وهو ستة : بدل كل نحو (مفازا حدائق) وبعض نحو (من استطاع) واشتمال نحو (قتال فيه) وإضراب وغلط ونسيان ، نحو (تصدقت بدرهم دينار) بحسب قصد الأول والثانى او الثانى وسبق اللسان ، او الأول وتبين الخطأ) .

ويحسن أن أورد بعض النماذج لمتون شعرية نظمت مسائل العلم فى أبيات تقل وتكثر على حسب التفصيل او الاجمال .

ومما جاء فى متن الزبد فى فقه الشافعية لأحمد بن حسين بن رسلان المتوفى ٨٤٤هـ :

• باب سجود السهو •

قبيل تسليم تسن سجدتاه	لسهو ما يبطل عمده الصلاه
وترك بعض عمدا او لذهل	لا سنة بل نقل ركن قولى

وكل ركن قد تركت ساهيا ... ما بعده لغو الى أن تأتيا
بمثله فهو ينوب عنه ... ولو بقصد النقل تفعلنه
ومن نسى التشهد المقدما ... وعاد بعد الانتصاب حرما
وجاهل التحريم أو ناسى فلا ... يبطل عوده ، والا أبطلا
لكن على المأموم حتما يرجع ... إلى الجلوس للامام يتبع
وعائد قبل انتصاب يندب ... سجوده إذ للقيام أقرب
ومقتد لسهوه لن يسجدا ... لكن لسهو من به قد اقتدى
وشكه قبل السلام فى عدد ... لم يعتمد فيه على قول أحد
لكن على يقينه وهو الأقل ... وليأت بالباقى ويسجد للخلل

وجاء فى أرجوزة « بغية الباحث عن جمل الموارث » المعروفة بالرحبية لمحمد بن على الرحبي المتوفى سنة ٥٧٧ هـ :

● « باب الثلث » ●

والثلث فرض الأم حيث لا ولد ... ولا من الاخوة جمع ذو عدد
كاثنين أو ثنتين أو ثلاث ... حكم الذكور فيه كالاناث
وإن يكن زوج وأم وأب ... فثلث الباقى لها مرتب
وهكذا مع زوجة فصاعدا ... فلا تكن عن العلوم قاعدا
وهو للاثنين أو ثنتين ... من ولد الأم بغير مين
وهكذا إن كثروا أو زادوا ... فما لهم فيما سواه زاد
ويستوى الاناث والذكور ... فيه كما قد أوضح المسطور

٢ ـ الشرح :

الشرح لغة ـ كما جاء فى « القاموس المحيط » ـ الكشف ، والقطع ، والفتح والفهم .

قال ابن فارس فى « **المقاييس** » (٣/٢٦٩) : (الشين والراء والحاء أصيل يدل على الفتح والبيان . من ذلك شرحت الكلام وغيره شرحا إذا بينته واشتقاقه من تشريح اللحم) .

وجاء فى « **المصباح المنير** » : (شرح الله صدره للاسلام شرحا : وسعه لقبول الحق .. وشرحت الحديث شرحا بمعنى فسرته وبينته وأوضحت معناه وشرحت اللحم،قطعته طولا .

ومعنى الشرح هنا ما يقابل المتن . ولهذا المعنى الاصطلاحى صلة وثيقة بالمعنى اللغوى . فهو كتاب وضع على المتن لايضاح عباراته وتفصيل ما أجمل فيه من مسائل العلم والتوسع فيها .

والأصل فى الكتاب أن يوضع على حال لا يكون فيها محتاجا إلى شرح .. بل ينبغى أن يفهم بذاته . ولكن الحاجة إلى الشرح كانت بسبب الأمور الاتية :

(١) شدة الايجاز : فلقد أتى على العلماء حين من الدهر كانوا يرون شدة الايجاز في (المتون) ، وهى الكتب التى توضع للطلبة ، خاصية لا يقوى عليها إلا من أوتى المهارة الفائقة[٣٣] حتى ان كثيرا من المتون بلغ حد الرموز والألغاز بسبب المبالغة فى الايجاز والاختصار وضغط العبارة وتحميل اللفظ القليل المعانى الكثيرة .

قال الاستاذ أبو زهرة : (.. وقد جاء العلماء فلخصوا هذه الكتب ثم اختصرت هذه التلخيصات فاحتاجت المختصرات الى شروح واستفاضت الأقلام فى هذه الشروح .. وقد اختصر الكتابين المذكورين كثيرون وكان الاختصار شديدا أحيانا حتى بلغ حد الرموز . ثم جاءت الشروح تحل هذه الرموز ..)[٣٤] .

وعند دراسة المتن ومحاولة فهمه كانت تبدو مشكلات عويصة نشأت من غموض الجمل ، فكانت الحاجة الى ما يوضح هذه المشكلات .. وكان من أجل ذلك الشرح . وقد يبلغ المتن من الرمزية والغموض مبلغا كبيرا بحيث لا يستطيع كثير من الناس فهم مراده إلا بصعوبة ، ومن هنا عمد بعض العلماء إلى شرح كتبهم .

(٢) حذف بعض مقدمات الأقيسة اعتمادا على وضوحها ، أو لأنها من علم آخر ، أو إهمال ترتيب بعض الأقيسة مما أدى إلى إغفال علل القضايا وعندئذ يحتاج الشارح إلى أن يذكر المقدمات المهملة ويبين ما يمكن بيانه فى ذلك العلم .

(٣) احتمال اللفظ لمعان تأويليه ، او لطافة المعنى ودقته عن أن يعبر عنه بلفظ يوضحه ، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف[٣٥] .

(٤) وقد يقع فى بعض التصانيف ما لا يخلو البشر عنه من السهو والغلط والحذف لبعض المهمات وتكرار الشىء بعينه بغير ضرورة ، فيحتاج الشارح إلى أن ينبه عليه[٣٦] .

وواضح أن ظهور الشرح كان متأخرا عن زمن ظهور المتن . وقد مر معنا آنفا أن أبا اسحق المروزى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ألف شرحا على مختصر المزنى ، وربما كان قبل المروزى شروح لبعض المصنفات والمتون ، مما يدل على ظهور فكرة الشرح فى وقت مبكر .

أنواع الشروح وأساليبها :

نستطيع أن نميز نوعين من الشروح :

(١) شرح يكون على متن كالألفية مثل شرح ابن عقيل وشرح الأشمونى وشرح ابن هشام على ألفية ابن مالك .

(٢) شرح يكون على أصل كالمعلقات السبع أو العشر ، وكصحيح البخارى وكديوان الحماسة . فقد شرح كلا من هذه الأصول عدد من العلماء ، وشروحهم معروفة متداولة .

وأحسب أن الفرق بين ما دعوناه اصلا وبين المتن واضح من الأمثلة التى ذكرناها .

فالمتن كتاب تعليمى وضع على وجه الايجاز ليحفظه طلبة العلم وهو محيط بأبواب العلم كلها .

أما الأصل فليس كذلك ، فإما أن يكون ديوان شعر لشاعر ، أو مختارات أو يكون كتابا جامعا لأحاديث من نوع ووفق شروط معينة ، كالكتب الستة (البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه) .

أما أساليب الشروح فنذكر منها ما يأتى :

(١) الشرح الممزوج : وفيه يدمج الشارح المتن بكلامه ويمزجها ويؤلف منها كتابه ، ويميز بين المتن والشرح بوضع المتن بين الأهلة (الأقواس) وبوضع خط فوق كلام المتن .

وهذه طريقة أكثر الشراح المتأخرين من المحققين .

وإليك بعض الأمثلة :

جاء فى متن أبى شجاع ما يأتى :

(فصل ، ولا يصح عقد النكاح إلا بولى وشاهدى عدل . ويفتقر الولى والشاهدان إلى ستة شرائط : الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة والعدالة . وأولى الولاة الأب ثم الجد أبو الأب ثم الأخ للاب والأم ثم الأخ للأب ثم ابن الأخ للأب والأم ثم ابن الأخ للأب ثم العم ثم ابنه على هذا الترتيب) .

وجاء فى شرح الخطيب الشربينى المعروف بالاقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع ٣٢٦/٣ :

(**فصل فى أركان النكاح : وهى خمسة** : صيغة وزوجة وزوج وولى ـ وهما العاقدان ـ وشاهدان . وعلى الأخرين ، وهما الولى والشاهدان ، اقتصر المصنف مشيرا إليهما بقوله (**ولا يصح عقد النكاح الا بولى**) أو مأذونه أو القائم مقامه ، كالحاكم عند فقده أو غيبته الشرعية أو عضله أو إحرامه (و) حضور (**شاهدى عدل**) لخبر ابن حبان فى « صحيحه » عن عائشة رضى الله تعالى عنها « لا نكاح الا بولى وشاهدى عدل . وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل ، فان تشاحوا فالسلطان ولى من لا ولى له » والمعنى فى احضار الشاهدين الاحتياط للابضاع وصيانه الأنكحة عن الجحود . ويسن إحضار جمع زيادة على الشاهدين من أهل الخير والدين (**ويفتقر الولى والشاهدان**) المعتبرون لصحة النكاح (**الى ستة شرائط**) بل إلى أكثر كما سيأتى . (**الاسلام**) **وهو فى ولى المسلمة اجماعا ، وسيأتى أن الكافر يلى الكافرة . وأما الشاهدان فالاسلام شرط فيهما ، سواء أكانت المنكوحة مسلمة أم ذمية ، إذ الكافر ليس أهلا للشهادة** .

(و) الثانى (**البلوغ** ، و) الثالث (**العقل**) فلا ولاية لصبى ومجنون وليسا من أهل الشهادة (و) الرابع (**الحرية**) فلا ولاية لرقيق ولا يكون شاهدا (و) الخامس (**الذكورة**) فلا تملك المرأة تزويج نفسها بحال ، لا بإذن ولا بغيره ، سواء الايجاب والقبول ، إذ لا يليق بمحاسن العادات

دخولها فيه لما قصد منها من الحياء وعدم ذكره أصلا . وقد قال الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » ولا تزوج غيرها بولاية ولا وكالة لخبر « لا تزوج المرأة المرأة . ولا المرأة نفسها » نعم لو ابتلينا والعياذ بالله تعالى بإمامة امرأة فان احكامها تنفذ للضرورة كما قال ابن عبد السلام وغيره . وقياسه تصحيح تزويجها .

ولا يعتبر إذن المرأة فى نكاح غيرها إلا فى ملكها . أو فى سفيه أو مجنون هى وصية عليه .

وليست المرأة أهلا للشهادة . فلا ينعقد النكاح بشهادة النساء ولا برجل وامرأتين لأنه لا يثبت بقولهم .. (و) السادس (**العدالة**) وهى ملكة فى النفس تمنع من اقتراف الذنوب ولو صغائر الخسة والرذائل المباحة . فلا ينعقد بولى فاسق . غير الامام الأعظم . مجبرا كان أم لا . فسق بشرب الخمر أم لا . أعلن بفسقه أم لا . لحديث « لا نكاح الا بولى مرشد » قال الامام الشافعى رضى الله عنه : والمراد بالمرشد العدل . وأفتى الغزالى رحمه الله تعالى بأنه لو كان سلب الولاية لا تنقلت الى حاكم فاسق ولى ، وإلا فلا . قال : ولا سبيل إلى الفتوى بغيره . إذ الفسق قد عم البلاد والعباد .

والأوجه إطلاق المتن . لأن الحاكم يزوج للضرورة . وقضاؤه نافذ . أما الأمام الأعظم فلا يقدح فسقه لأنه لا ينعزل به فيزوج بناته وبنات غيره بالولاية العامة تفخيا لشأنه فعليه إنما يزوج بناته إذا لم يكن لهن ولى غيره كبنات غيره ..) .

(٢) الشرح باستعمال هاتين الكلمتين (**قال**) للمتن و (**أقول**) للشرح كشرح « **المقاصد** » وشرح « **الطوالع** » **للأصفهانى** .

وقد يكتب المتن فى هذا الأسلوب فى بعض النسخ بتمامه . وربما لا يكتب لكونه مندرجا فى الشرح بلا امتياز .

ومن الشروح التى تستعمل (**قال وأقول**) شرح شذور الذهب لابن هشام ولما كان مؤلف المتن هو الشارح كان هذا الكتاب مبنيا على قوله (**قلت**) للمتن و (**أقول**) **للشرح** .. **واليك المثال الآتى** :

(**ثم قلت** : فصل - واذا أتبع المنادى ببدل أو نسق مجرد من « أل » فهو كالمنادى المستقل مطلقا . وتابع المنادى المبنى غيرهما يرفع أو ينصب . إلا تابع « أى » فيرفع . وإلا التابع المضاف المجرد من « أل » فينصب . كتابع المعرب . وأقول : لتوابع المنادى أحكام تخصها : فلهذا أفردتها بفصل .

والحاصل أن التابع اذا كان بدلا أو نسقا مجردا من « أل » فانه يستحق حينئذ ما يستحقه لو كان منادى . تقول فى البدل « يازيد كرز » بالضم . بالضم . كما تقول « ياكرز » وكذلك « يا عبد الله كرز » وفى النسق « يازيد وخالد » بالضم . كما تقول « يا خالد » وكذلك « يا عبد الله وخالد » لا فرق فى البابين المذكورين بين كون المنادى معربا أو مبنيا . وان كان التابع غير بدل ونسق مجرد من

« أل » : فإن كان المنادى مبنيا فالتابع له ثلاثة اقسام : ما يجب رفعه وما يجب نصبه ، وما يجوز فيه الوجهان : فالواجب رفعه نعت « أى » نحو (**يأيها الانسان**) (**يأيها الناس**) ، وعن المازنى اجازة نصبه ، وانه قرىء . (**قل يأيها الكافرين**) وهذا ان ثبت فهو من الشذوذ بمكان . والواجب نصبه التابع المضاف ، مثاله فى النعت نحو « **يا زيد صاحب عمرو** » ومثاله فى التوكيد « **يا تميم كلهم** » أو « **كلكم** » ومثاله فى البيان « **يا زيد أبا عبد الله** » . والجائز فيه الوجهان التابع المفرد ، نحو « يا زيد الفاضل ، والفاضل » و « يا تميم أجمعون ، وأجمعين » و « يا سعيد كرز ، وكرزا » قال ذو الرمة : **لقائل يا نصر نصرا**

وان كان المنادى معربا تعين نصب التابع ، نحو « يا عبد الله صاحب عمرو » و « يا بنى تميم كلهم » و « يا عبد الله أبا زيد » .

وإذا وجب نصب المضاف التابع للمبنى فنصبه تابعا لمعرب أحق ، قال الله تعالى : (قل اللهم فاطر السموات والأرض) ففاطر : صفة لاسم الله سبحانه ، وزعم سيبويه أنه نداء ثان حذف منه حرف النداء ، لأن المنادى الملازم للنداء لا يجوز عنده أن يوصف ، وكلمة « **اللهم** » **لا تستعمل الا فى النداء**)[٣٧] .

(٣) الشرح باستعمال كلمة (**قوله**) كشرح ابن حجر لصحيح البخارى وهذا الأسلوب قليل فى شروح المتون ، و « فتح البارى » شرح لأصل لا لمتن وسنرى بعد قليل أن هذا الأسلوب يكثر فى الحواشى . ولا يلتزم الشارح بذكر كلام الأصل الذى يشرحه كاملا .. ولكنه يذكر أول الجملة التى يريد شرحها .

ومع ذلك فقد يكتب النساخ (المتن) أو (الأصل) تاما فى الهامش وإليك هذا المثال من صحيح البخارى وفتح البارى : قال البخارى (باب : **العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى فاعلم أنه لا اله الا الله فبدأ بالعلم وان العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا الى الجنة ، وقال جل ذكره إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقال « وما يعقلها الا العالمون » وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » وقال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال النبى ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما العلم بالتعلم » .**

وقال أبو ذر : **لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار الى قفاه ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى ﷺ قبل أن تجيزوا على لأنفذتها وقال ابن عباس : كونوا ربانيين حلماء فقهاء علماء . ويقال الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره .**

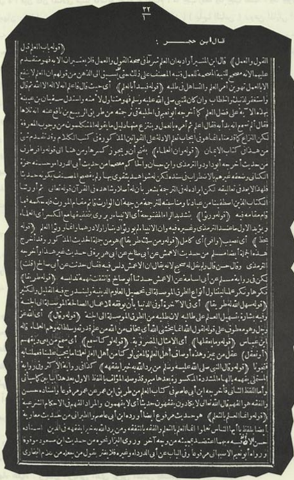

٣٢
١

قال ابن حجر :

(قوله باب العلم قبل
القول والعمل) قال ابن المنير أراد به ان العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران الا به فهو متقدم
عليهما لانه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه المصنف على ذلك حتى لا يسبق الى الذهن من قولهم ان العلم لا ينفع
الا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه (قوله فبدأ بالعلم) أي حيث قال فاعلم انه لا اله الا الله ثم قال
واستغفر لذنبك والخطاب وان كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو متناول لأمته واستدل سفيان بن عيينة
بهذه الآية على فضل العلم كما أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمته من طريق الربيع بن نافع عنه انه تلاها
فقال ألم تسمع انه بدأ به فقال اعلم ثم أمره بالعمل وينتزع منها دليل ما يقوله المتكلمون من وجوب المعرفة
لكن النزاع كما قدمناه انما هو في ايجاب تعلم الادلة على القوانين المذكورة في كتب الكلام وقد تقدم شيء
من هذا في كتاب الايمان (قوله وان العلماء) بفتح أن ويجوز كسرها ومن هنا الى قوله وافر طرف
من حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم مصححا من حديث أبي الدرداء وحسنه حمزة
الكناني وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده لكن له شواهد يتقوى بها ولم يفصح المصنف بكونه حديثا
فلهذا لا يعد في تعاليقه لكن ايراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلا وشاهده في القرآن قوله تعالى ثم أورثنا
الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ومناسبته للترجمة من جهة ان الوارث قائم مقام المورث فله حكمه فيما
قام مقامه فيه (قوله ورثوا) بتشديد الراء المفتوحة أي الانبياء ويروى بتخفيفها مع الكسر أي العلماء
ويؤيد الاول ما عند الترمذي وغيره فيه وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم (قوله
بحظ) أي نصيب (وافر) أي كامل (قوله ومن سلك طريقا) هو من جملة الحديث المذكور وقد أخرج
هذه الجملة أيضا مسلم من حديث الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة في حديث غير هذا وأخرجه
الترمذي وقال حسن قال ولم يقل له صحيح لانه يقال ان الاعمش دلس فيه فقال حدثت عن أبي صالح (قلت)
لكن في رواية مسلم عن أبي أسامة عن الاعمش حدثنا أبو صالح فانتفت تهمة تدليسه (قوله طريقا)
نكرها ونكر علما ليتناول أنواع الطرق الموصلة الى تحصيل العلوم الدينية وليندرج فيه القليل والكثير
(قوله سهل الله له طريقا) أي في الآخرة أو في الدنيا بأن يوفقه للأعمال الصالحة الموصلة الى الجنة
وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لان طلبه من الطرق الموصلة الى الجنة (قوله وقال) أي الله عز
وجل وهو معطوف على قوله لقول الله انما يخشى الله أي يخاف من الله من علم قدرته وسلطانه وهم العلماء قاله
ابن عباس (قوله وما يعقلها) أي الامثال المضروبة (قوله لو كنا نسمع) أي سمع من يعي ويفهم
(أو نعقل) عقل من يميز وهذه أوصاف أهل العلم فالمعنى لو كنا من أهل العلم لعلمنا ما يجب علينا فعملنا به
فنجونا (قوله وقال النبي صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه) كذا في رواية الاكثر وفي رواية
المستملي يفهمه بالهاء المشددة المكسورة بعدها ميم وقد وصله المؤلف باللفظ الاول بعد هذا ببابين كما سيأتي
وأما اللفظ الثاني فأخرجه ابن أبي عاصم في كتاب العلم من طريق ابن عمر عن عمر مرفوعا واسناده حسن
والفقه هو الفهم قال الله تعالى لا يكادون يفقهون حديثا أي لا يفهمون والمراد الفهم في الاحكام الشرعية
(قوله وانما العلم بالتعلم) هو حديث مرفوع أيضا أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية
أيضا بلفظ يا أيها الناس تعلموا انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين اسناده
حسن الا ان فيه مبهما اعتضد بمجيئه من وجه آخر وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفا
ورواه أبو نعيم الاصبهاني مرفوعا وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره فلا يغتر بقول من جعله من كلام البخاري

والمعنى ليس العلم المعتبر الا المأخوذ من الانبياء وورثتهم على سبيل التعلم (قوله وقال أبو ذر الخ) هذا
التعليق رويناه موصولا في مسند الدارمي وغيره من طريق الاوزاعي حدثني أبو كثير يعني مالك بن مرثد
عن أبيه قال أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع عليه الناس يستفتونه فأتاه رجل
فوقف عليه ثم قال ألم تنه عن الفتيا فرفع رأسه اليه فقال أرقيب أنت علي لو وضعتم فذكر مثله ورويناه في
الحلية من هذا الوجه وبين أن الذي خاطبه رجل من قريش وان الذي نهاه عن الفتيا عثمان رضي الله
عنه وكان سبب ذلك أنه كان بالشام فاختلف مع معاوية في تأويل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة
فقال معاوية نزلت في أهل الكتاب خاصة وقال أبو ذر نزلت فيهم وفينا فكتب معاوية الى عثمان فأرسل
الى أبي ذر فحصلت منازعة أدت الى انتقال أبي ذر عن المدينة فسكن الربذة بفتح الراء والموحدة والذال
المعجمة الى أن مات رواه النسائي وفيه دليل على ان أبا ذر كان لا يرى بطاعة الامام اذا نهاه عن الفتيا لانه
كان يرى ان ذلك واجب عليه لامر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه كما تقدم ولعله أيضا سمع الوعيد في
حق من كتم علما يعلمه وسيأتي لعلي مع عثمان نحوه والصمصامة بمهملتين الاولى مفتوحة هو السيف
الصارم الذي لا ينثني وقيل الذي له حد واحد (قوله هذه) اشارة الى القفا وهو يذكر ويؤنث وأنفذ
بضم الهمزة وكسر الفاء والذال المعجمة أي أمضي وتجيزوا بضم المثناة وكسر الجيم وبعد الياء زاي
تكملوا قتلي ونكر كلمة ليشمل القليل والكثير والمراد انه يبلغ ما تحمله في كل حال ولا ينتهي عن ذلك ولو
أشرف على القتل ولو في كلامه لمجرد الشرط من غير ان يلاحظ الامتناع أو المراد ان الانفاذ حاصل على
تقدير وضع الصمصامة وعلى تقدير عدمه فحصوله أولى فهو مثل قوله لو لم يخف الله لم يعصه وفيه الحث على
تعليم العلم واحتمال المشقة فيه والصبر على الاذى طلبا للثواب (قوله وقال ابن عباس) هذا التعليق
وصله ابن أبي عاصم أيضا باسناد حسن والخطيب باسناد آخر حسن وقد فسر ابن عباس الرباني بأنه الحكيم
الفقيه ووافقه ابن مسعود فيما رواه ابراهيم الحربي في غريبه عنه باسناد صحيح وقال الاصمعي والاسماعيلي
الرباني نسبة الى الرب أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل وقال ثعلب قيل للعلماء ربانيون
لانهم يربون العلم أي يقومون به وزيدت الالف والنون للمبالغة والحاصل انه اختلف في هذه النسبة هل هي
نسبة الى الرب أو الى التربية والتربية على هذا للعلم وعلى ما حكاه البخاري لتعلمه والمراد بصغار العلم ما وضح
من مسائله وبكباره ما دق منها وقيل يعلمهم جزئياته قبل كلياته أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده
وقال ابن الاعرابي لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالما معلما عاملا (فائدة) اقتصر المصنف في هذا الباب
على ما أورده من غير أن يورد حديثا موصولا على شرطه فاما أن يكون بيض له ليورد فيه ما يثبت على شرطه
أو يكون تعمد ذلك ليكتفي بما ذكر والله أعلم

٤ ـ الشرح الذى يعتمد إيراد المتن أولا ، يأتى بعد ذلك بالشرح وقد يشير بعضهم إلى المتن بحرف الصاد (يريد المصنف مرجحا ذكر أصل المادة : صنف) .

وقد يشير بعضهم إلى المتن بحرف الميم (يريد المصنف مشيرا إلى أول حرف من كلمة المصنف) .

وإلى الشرح بحرف الشين (يريد الشارح)

وقد يستعمل الحبر الأحمر علامة أيضا .

وإليك هذا المثال :

جاء فى شرح قطر الندى مايأتى : (ص ـ وكذا « لا » النافية فى الشعر بشرط تنكير معموليها نحو :

تَعَزَّ فلا شىء على الأرض با قيا ولاوَزَرٌ مما قضى الله واقيا

ش ـ الحرف الثانى مما يعمل عمل ليس « لا » كقوله :

تعز فلا شىء على الأرض باقيا ولاوزر مما قضى الله واقيا

ولإعمالها أربعة شروط : أن يتقدم اسمها . وأن لا يقترن خبرها بإلا . وأن يكون اسمها وخبرها نكرتين . وأن يكون ذلك فى الشعر لا فى النثر .

فلا يجوز إعمالها فى نحو (لا أفضل منك أحد) ولا فى نحو (لا أحد إلا أفضل منك) ولا فى نحو (لا زيد قائم ولا عمرو) ولهذا غلط المتنبى فى قوله :

إذا الجود لم يرزق خلاصا من الأذى فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا

وقد صرحت بالشرطين الأخيرين . ووكلت معرفة الأولين إلى القياس على (ما) لأن (ما) أقوى من (لا) ولهذا تعمل فى النثر . وقد اشترط فى (ما) أن لا يتقدم خبرها . ولا يقترن بالا . فأما اشتراط أن لا يقترن الاسم فلا حاجة له هنا . لان اسم (لا) لا يقترن بأن».[٣٨]

٥ ـ الشرح الذى يعمد الشارح فيه إلى شرح ماورد فى المتن دون أن يلتزم بذكر عبارة المتن أبدا . ودون أن يشير إليها بشىء .

مثل كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » .

وإليك مثالا منه : قال ابن مالك :

ميِّز فى الاستفهام كم بمثل ما ميِّزت عشرين ككم شخصا سما
وأجز أن تجره من مضمرا إن وليت كم حرف جر مظهرا
واستعملنها مخبرا كعشرة أو مائة ككم رجال أو مره
ككم كأى وكذا وينتصب تمييز ذين أو به صل من نصب

وقال ابن هشام فى « أوضح المسالك » فى شرح هذه الأبيات ۲۲٦/۳ :

هذا باب كنايات العدد - وهى ثلاثة : كم ، وكأى ، وكذا .

أما « كم » فتنقسم إلى : استفهامية بمعنى أى عدد ، وخبرية بمعنى كثير . ويشتركان فى خمسة أمور : كونهما كنايتين عن عدد مجهول الجنس والمقدار ، وكونهما مبنيين ، وكون البناء على السكون ولزوم التصدير ، والاحتياج إلى التمييز .

ويفترقان أيضا فى خمسة أمور أيضا :

أحدها أن « كم » الاستفهامية تميز بمنصوب مفرد ، نحو « كم عبدا ملكت » ويجوز جره بمن مضمرة جوازا إن جرّت كم بحرف نحو « بكم درهم اشتريت ثوبك » وتميز الخبرية بمجرور مفرد أو مجموع ، نحو « كم رجال جاءوك » و« كم امرأة جاءتك » والافراد أكثر وأبلغ .

والثانى : أن الخبرية تختص بالماضى كرب : لا يجوز « كم غلمان سأملكهم » كما لا يجوز « رب غلمان سأملكهم ويجوز كم عبدا ستشتريه » .

والثالث : أن المتكلم بها لا يستدعى جوابا من مخاطبه

والرابع : أنه يتوجه إليه التصديق والكذيب .

والخامس : أن المبدل منها لا يقترن بهمزة الاستفهام ، تقول « كم رجال فى الدار عشرون بل ثلاثون » ويقال « كم مالك أعشرون أم ثلاثون ؟ »

تنبيه : يروى قول الفرزدق :

كم عمّـة لك يا جريـر وخالة   فَدْعَـاء قد حلبـت علىّ عشارى

بجر « عمة » و « خالة » على أن كم خبرية ، وبنصبها ، فقيل : أن تميم تجيز نصب مميز الخبرية مفردا ، وقيل : على الاستفهام التهكمى ، وعليها فهى مبتدأ . و « قد حلبت » خبر ، والتاء للجماعة لأنها عمات وخالات ، وبرفعها على الابتداء . و « حلبت » خبر للعمة أو الخالة ، وخبر الأخرى محذوف ، والا لقيل « قد حلبتا » والتاء فى « حلبت » للوحدة لأنها عمة واحدة وخالة واحدة ، و « كم » نصب على المصدرية أو الظرفية ، أى كم حلبة أو وقتا .

وأما « كأى » فبمنزلة « كم » الخبرية : فى افادة التكثير ، وفى لزوم التصدير ، وفى انجرار التمييز ، الا أن جره بمن ظاهرة لا بالاضافة ، قال الله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) ، وقد ينصب كقوله :

اطـرد اليـأس بالرجـا فكأى   ألما حم يسره بعـد عسره

وأما « كذا » فيكنى به عن العدد القليل والكثير ، ويجب فى تمييزها النصب ، وليس لها الصدر : فلذلك تقول « قبضت كذا وكذا درهما » .

مهمة الشرح :

مهمة الشرح تعليمية ، إذ تيسر لطالب العلم فهْم المتن الذى حفظه واستظهره ، وأستطيع أن أحدد هذه المهمة بما يأتى :

١ - توضيح عبارة المتن لغة وإعرابا وتفصيلا لمجمل ، وتصحيحا أو تضعيفا لقول ، وضربا للأمثلة الكثيرة .

٢ - الزيادة فى المعلومات ببيان القيود والشروط فى المسألة المشروحة وإيراد أقوال العلماء المختلفة فيها .

٣ - نصرة ما التزم شرحه بقدر الاستطاعة ، والدفاع عما تكفل إيضاحه اللهم إلا إذا عثر على شىء لا يمكن حمله على وجه صحيح ، فحينئذ ينبه عليه ، وهذا نادر ، إذ قلما نجد فى الشروح ردا أو انتقادا لما فى المتون .

هذا وقد كان بعض العلماء يكتبون متنا ، ثم يتولون بأنفسهم شرحه كما صنع ابن هشام فى « **قطر الندى** » و « **شذور الذهب** » .

وكما صنع ابن حجة الحموى فى « **بديعيته** » ، ابن حجر فى « **نخبة الفكر** » والعراقى فى « **ألفية الحديث** »[٣٩] .

وقد يقع أن يكون شرح المتن لغير المؤلف أجود من شرح المؤلف وأكثر فائدة كما نرى فى شرح السخاوى لألفية الحديث للزين العراقى المسمى « **فتح المغيث** »[٤٠] .

٣ - الحاشية :

حاشية كل شىء : طرفه وجانبه . وحاشية الكتاب : طرفه . وحاشية الثوب جانباه[٤١] .

ويظهر أن طلبة العلم والعلماء منذ عرفوا الكتاب كانوا يسجلون ما يعن لهم من أفكار وملحوظات واستدراكات على طرف الكتاب وحاشيته ، ثم سمى المكتوب على حاشية الكتاب (**حاشية**) على سبيل المجاز المرسل ، من تسمية الشىء باسم محله ، وهذه العلاقة تعرف فى علم البيان بالعلاقة المحلية التى هى واحدة من علاقات المجاز المرسل .

أما ظهور الحاشية على أنها قالب من قوالب التأليف وإطار من أطره فقد كان متأخرا .

والحاشية - بهذا المعنى - هى المقصودة فى هذا البحث .

وقد اشتق المتأخرون من (**الحاشية**) بمعناها الاصطلاحى فعلا هو : حَشَّى يُحَشِّى تحشية فهو محشٍّ ، وهذا الاستعمال عامّى كما قال الزبيدى فى « تاج العروس » قال : (حشى الرجل تحشية : كتب على حاشية الكتاب عامية) .

والسبب الداعي إلى ظهورها أن بعض العلماء رأى ضرورة التوسع فى موضوعات عرض لها الشارح ولم يوفها حقها .. فكان ذلك دافعا الى أن يكتب فيها بانيا كلامه على ما ورد فى الشرح .. ويبدو أن العلماء استحسنوا هذه الطريقة فقلدوها فعمت وشاعت .

خصائصها :

أستطيع أن أذكر لهذا الإطار من أطر التأليف الخصائص الآتية :

١ - لمؤلف الحاشية أن يستطرد ما أراد الاستطراد لأقل صلة . ومن هنا كنت تجد فى الحاشية تعرّضا لموضوعات لا يخطر على البال أنها فيها ، وربما وقع المرء على فوائد علمية نادرة يعز الوقوف عليها فى غير هذا الموضع .

٢ - ليس كاتب الحاشية ملزما أن يشرح الأصل كلمة كلمة وجملة جملة كما هو الشأن الغالب فى الشرح .

٣ - وأهم خصائص الحاشية أننا لا نرى فيها دمجا بين كلام الشرح والحاشية بل يختار المؤلف بعض العبارات ويوردها بقوله : (قوله كذا ..) ويضعها بين هلالين ، ولا يتم العبارة .

مهمتها :

والحاشية على نوعين :

١ - حاشية على شرح : وهذا اكثر ما تكون عليه الحواشي .

كحاشية البساطى (المتوفى ٨٤٢هـ) على الافصاح المطول .

وكحاشية السجاعى (المتوفى ١١٩٧هـ) على شرح القطر .

وكحاشية الصبان (المتوفى ١٢٠٦هـ) على شرح الأشمونى .

٢ - حاشية على متن : وهذا النوع أقل من النوع الأول .

كحاشية الباجورى (المتوفى ١٢٧٦هـ) على السمرقندية .

وكحاشية محمد الأمير (المتوفى ١٣٣٢هـ) على مغنى اللبيب . وسنرى مثالا على كل من النوعين .

أنواعها :

والمهمة التى تؤديها الحاشية هى :

- تأييد ما يذهب إليه الشارح .
- أو الاستشهاد له .
- أو اكمال ما أورد من شاهد ، وتوجيهه .
- أو نقد الشارح والاستدراك عليه .

- أو توسيع الموضوع وتفصيله .
- أو الاتيان ببعض الفوائد التى تهم الطالب المتصلة من بعيد بما يذكره الشارح .
- أو إيراد نُقُول عن الكتب الأخرى فى هذا الموضوع لتكملته . وغالبا تجتمع هذه الأمور فى الحاشية أو معظمها أو بعضها .

وإليك بعض الأمثلة :

١ - مثال على حاشية على شرح :

جاء فى شرح القطر ما يأتى :

(وإنما تكون « ذا » موصولة بشرط أن يتقدمها « ما » الاستفهامية نحو « ماذا أنزل ربكم » أو « من » الاستفهامية نحو قوله :

وقصيدة تأتى الملوك غريبة قد قلتها ليقال من ذا قالها

أى ما الذى أنزل ربكم ، ومن الذى قالها . فان لم يدخل عليها شىء من ذلك فهى اسم اشارة ولا يجوز أن تكون موصولة خلافا للكوفيين واستدلوا بقوله :

عَدَس مالعِبَّادٍ عليك إمارةٌ أمنت وهذا تحملين طليق

قالوا (هذا) موصول مبتدأ ، و (تحملين) صلته ، والعائد محذوف ، و (طليق) خبره ، والتقدير : والذى تحملينه طليق . وهذا لا دليل فيه ..) .

قال السجاعى فى حاشيته ما يأتى :

« **قوله بشرط أن تقدمها الخ » ويشترط أيضا عدم إلغاء (ذا) ، والمراد بإلغائها ان تجعل مع (ما) أو (من) اسما واحدا مستفهما به . ويظهر أثر الأمرين فى البدل من اسم الاستفهام ، وفى الجواب فتقول عند جعلك (ذا) موصولا** : ماذا صنعت أخير أم شر . بالرفع على البدلية من (ما) لأنه مبتدأ و (ذا) خبره ، أو بالعكس ، وجملة (صنعت) صلته . وتقول عند جعلها اسما واحدا : ماذا صنعت أخيرا أم شرا . ومن ذا أكرمت أزيدا أم عمرا . بالنصب على البدلية من (ماذا) أو (من ذا) لأنه منصوب بالمفعولية مقدما .

وكذلك تفعل فى الجواب كما فى قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قرئ فى السبع برفع العفو ونصبه . تأمل .

« قوله وقصيدة تأتى .. الخ » من بحر الكامل ، وهى فعلية بمعنى مفعولة ، لأن الشاعر يقصد تحسينها وتهذيبها ، ولا تسمى الأبيات قصيدة حتى تكون عشرة ، وقيل : حتى تجاوز سبعة ، وما دون ذلك يسمى قطعة .

« قوله عدس ما لعباد . الخ » من الطويل ، وعدس بفتح العين والدال وسكون السين المهملات ، اسم صوت يزجر به البغل ، والإتيان بضمير المؤنث فى البيت إما لكون المزجور أنثى ،

أو على إرادة الدابة ، بناء على أنه مذكر . وامارة ، بكسر الهمزة ، أى حكم . « وقوله أمنت .. الخ » يروى بدله : نجوت . وطليق أى مطلق من السجن والشاهد فى « هذا » حيث جاءت موصولة على رأى الكوفيين . وعبّاد المذكور ملك سجستان ، وكان الشاعر قد هجاه ، فلما سجنه وأطال سجنه كلموا فيه معاوية ، فبعث إليه : فاخرجه ، وقدمت إليه بغلته فنفرت ، فقال : عدس .. الخ اهـ ش بـ[٤٢] ملخصا [٤٣] .

٢ ـ مثال على حاشية على متن :

جاء فى السمرقندية ما يأتى :

« ذهب السكاكى إلى أنه إن كان المستعار له محققا حسا أو عقلا فالاستعارة تحقيقية وإلا فتخييلية » .

قال البيجورى فى حاشيته على السمرقندية ما يلى :

« قوله محققا حسا او عقلا المراد بالمحقق حسا ما له تحقق فى الخارج بحيث يحس بحاسة البصر ، وذلك كما فى قولك : رأيت أسدا فى الحمّام ، فإن المستعار له ، وهو الرجل الشجاع محقق حسّا بالمعنى المذكور . والمراد بالمحقق عقلا ما يحكم العقل بأنه ذو تحقق ، لكونه ثابت فى نفسه كالأمور الاعتبارية الصادقة ، وذلك كما فى قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » فان المستعار له وهو الدين الحق محقق عقلا بالمعنى المذكور ، وعلم من ذلك انه ليس المراد بالتحقق عقلا مجرد كون المستعار له موجودا فى الذهن ، فإن هذا القدر موجود فى التخييلية ، ولا يخفى أنه يلزم من كون المستعار له محققاً حساً كونه محققاً عقلاً وحينئذ فقوله حساً أى وعقلا ، وقوله أو عقلا أى فقط .

« قوله فالاستعارة تحقيقية » سميت بذلك لأن المستعار له محقق إما فى الحس أو العقل .

« قوله وألا » أى وإن لم يكن المستعار له محققا حسا أو عقلا بأن كان متخيلا ، وذلك كما فى قولك : « أنشبت المنية أظفارها بفلان » فإن المستعار له متخيل لأنه بعد تشبيه المنية بالسبع تتخيل القوة المفكرة للمنية صورة شبيهة بالأظفار فشبهت الصورة المتخيلة بالصورة المحققة ، واستعير لفظ الأظفار من الصورة المحققة للصورة المتخيلة على طريق الاستعارة التخييلية ، والتعبير بالقوة المفكرة اولى من تعبيرهم بالوهم ، لأن الذى من شأنه التحليل والتركيب إنما هو القوة المفكرة ، ويقال لها القوة المتصرفة ، لكن لما كان تصرفها المذكور بواسطة الوهم نسبوه إليه ، وذلك أن الحكماء زعموا أن فى الرأس ثلاثة تجاويف :

ـ تجويف فى مقدمه ، وفيه قوتان « الأولى الحس المشترك ، وهو قوة تدرك صور المحسوسات بأسرها ، والثانية الخيال وهو قوة تحفظ تلك الصور فهى خزانة للحس المشترك .

ـ وتجويف فى مؤخره ، وفيه قوتان : الأولى الواهمة ، وهى قوة تدرك المعانى الجزئية كصداقة زيد وعداوة عمرو ، والثانية الحافظة وهى قوة تحفظ تلك المعانى ، فهى خزانة للواهمة .

ـ وتجويف فى وسطه ، مستطيل بين التجويفتين ، نافذ لكل منها ، ومثلوه بالدودة وفيه قوة واحدة وهى المفكرة ».

هذا ما اشتهر فى النقل عنهم ، وفى كلام بعضهم أن الواهمة مع المفكرة فى التجويف الذى فى وسطه ، والحافظة فى أول التجويف الذى فى مؤخره .

واقتضت الحكمة الآلهية فراغ آخر للنزول والصدم ، كما قاله بعض شراح الهداية . وجميع هذه القوى غير القوة العاقلة التى فى القلب ولها شعاع متصل بالدماغ وقد جمعت فى قول بعضهم :

أمنع شريكك عن خيالك وانصرف — عن وهمه واحفظ لذلك واعقلا

وما عدا القوة العاقلة من هذه القوى لم يقم عند أهل السنة دليل على ثبوتها ولا على انتفائها فهم لا يقولون بثبوتها ولا بانتفائها .

« قوله فتخييلية » سميت بذلك لأن المستعار له متخيل »[٤٤] .

د ـ التقرير :

ولا يكون غالبا إلا على الحاشية ، وقليلا ما يكون على المتن أو الشرح . والتقرير كلمات يقولها الأستاذ ساعة إلقائه الدرس ، وقد يرتجلها وربما اعدها مكتوبة قبل الدرس .

وأكثر المعلومات فى التقرير تكون إكمالا لما ورد فى الحاشية وزيادة عليها أو نقدا لما جاء فيها فهو إذاً تتميم للحاشية وإكمال لها وتعد الأمور التى سكت عنها صاحب التقرير محل موافقة منه عليها .

ومن أشهر أصحاب التقريرات الشيخ محمد الأنبابى المتوفى سنة ١٣١٢ هـ . وسنضرب مثلا على هذا الإطار من تقرير الأجهورى على حاشية الباجورى على السمرقندية فى البلاغة :

المثال :

قال العلامة الشيخ احمد الأجهورى « المتوفى ١٢٩٣ هـ » فى تقريره على الموضع السابق الذى أوردناه آنفا قال :

« قوله ومثلوه بالدودة » أى مثلوا التجويف المتوسط فى الرأس بالتجويف المتوسط فى الدودة ، بمعنى أنه مثله فى الاستطالة ، فلها ثلاثة تجاويف ، تجويف عند رأسها ، وتجويف عند ذيلها ، وتجويف فى وسطها وهو أطول من التجويفين الآخرين ، وقد أخبرنا بعض الناس أنه رآها كذلك »[٤٥] .

ملحوظات هامة :

١ ـ كان التسلسل الزمنى لظهور هذه الأطر من الكتب وفقا للترتيب الذى أوردناها عليه . فأقدمها المتن ، وأحدثها التقرير الذى يعد إطارا حديث الظهور بالنسبة إلى الأطر السابقة .

٢ ـ إن معظم المؤلفين فى العصور المتأخرة قد ضعفت حاسة النقد عندهم ، وكأنى بهم قد أسقطوا من حسابهم موضوع المناقشة ، ولذلك فأنت تراهم يوردون الخرافات والأساطير دون أن يعلقوا عليها بشىء ، ويوردون الافتراضات الخيالية ؛ من ذلك ما جاء فى « الحواشى المدنية » ١١٢/١ للكردى

المتوفى ١١٩٤ تعليقا على قول الشارح « وما تولد من احدهما » مع حيوان طاهر ولو آدميا تغليبا للنجس » : « قال فى « التحفة » : بخلاف التكاليف . لأن مناطها العقل . ولا ينافيه نجاسة عينه للعفو عنها . فيدخل المسجد ويماس الناس ولو مع الرطوبة ويؤمهم . لأنه لا تلزمه الاعادة . ا هـ ملخصا وأفتى م ر [٤٦] بطهارته حيث كان على صورة الآدمى كما ذكره سم [٤٧] فى حواشى المنهج . فإن كان على صورة الكلب قال سم فى « حواشى التحفة » : ينبغى نجاسته وإلاّ يكلف وإن تكلم وميّز وبلغ مدة بلوغ الآدمى إذ هو بصورة الكلب . والأصل عدم آدميته .. وذكر عن بعضهم أن الآدمى بين شاتين يصح منه أن يخطب ويؤم الناس ويجوز ذبحه وأكله أ هـ . قياسه أن الآدمى من حيوان البحر كذلك . وفى كلام بعضهم أن المتولد بين سمك وآدمى له حكم الآدمى أ هـ مقتضاه حرمة أكله .. » .

٣ ـ إن الشخصية العلمية النامية فى المؤلفين قل ظهورها فى المؤلفات المتأخرة وذلك أننا نجد فيها أقوالا عدة حفظها المؤلف وأوردها دون أن يبدى رأيه فى الأقوى منها . إلا أن يكون للمتقدمين فيها قول صريح فيأتى به عندئذ ناقلا .

٤ ـ أن دوران هذه الأطر التأليفية على حل الألفاظ وشرحها جعل اهتمام طلبة العلم والمؤلفين بالناحية اللفظية كبيرا جدا : فقد كان لأصحاب الحواشى والتقريرات جولات مطولة فى دلالة الجملة والكلمة . ومناقشات مسهبة لنواحى لفظية . وكان اهتمامهم يطغى على ما سواه كتسهيل العلوم وضبط مسائلها وتقريب قصيها وجمع شاردها .

وهذا الغرم لا يتناسب والغنم الذى تؤديه من الدقة والوقوف على الدلالة بشكل جيد .

ولا يبالغ من يقول : إن الوسيلة انقلبت عند أصحاب الشروح والحواشى والتقريرات إلى غاية . فاللفظ وفهمه وسيلة لفهم مسائل العلم . وليس غاية فى ذاته . بينما نجد أن ذلك غاية عند القوم .

الهوامش

(١) انظر «مناهج البحث العلمي» لعبد الرحمن بدوى ص٤ .

(٢) وقد طبع فى روما سنة ١٥٩٣ ثم فى طهران ثم فى الهند ومصر . وطبع فى أوروبا أكثر من مرة بعضها باللغات الأجنبية وبعضها مشفوعا بالنص العربى (انظر معجم المطبوعات العربية ١/١٣٠ ـ ١٣١) ولشيخ الاسلام ابن تيمية رأى فى الرجل وفكره .

(٣) من أمثال جرجى زيدان فى كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» وأحمد أمين فى كتابيه «ضحى الاسلام» و«ظهر الاسلام» وطه حسين وأحمد زكى فى مقدمتها للرسائل المطبوعة فى مصر .

(٤) وهذه الرسائل إحدى وخمسون رسالة . منها رسائل رياضية وهى ١٤ رسالة : الأولى فى العدد وماهيته وكميته وكيفية خواصه . والثانية فى الهندسة وبيان ماهيتها وأنواعها . وفى هاتين الرسالتين من تخريفات الفلاسفة المتقدمين وأساطيرهم المضحكة الشىء الكثير . والثالثة فى النجوم . وفيها نجد الاسفاف المتناهى : إذ يقرر كاتبوها أن للنجوم تأثيرا فى هذا العالم .. ومنها الرسائل الجسمانية الطبيعية وهى ١٧ رسالة وفيها كذلك من الفساد والالحاد الشىء الكثير . ولكن فيها كلاما عن حوادث الجو والضباب والأمطار والرعود والبرق وما إلى ذلك . هذا وقد نشرت هذه الرسائل أكثر من مرة فى أربعة مجلدات كبيرة وسعى فى نشرها وخدمتها مستشرقون ونصارى وبعض المستغربين . ومؤلفوها قوم من أئمة القرامطة كما قرر ذلك شيخ الاسلام ابن تيميه فى «درء تعارض العقل والنقل» ٥/١٠ وكما جاء فى فتوى له عن النصيرية ص١٩ طبع دار الافتاء بالرياض . ويقول المستشرق دى بور فى كتابه (تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص١١٣) : « ان آراء إخوان الصفا ظهرت فى جملتها من جديد عند فرق كثيرة فى العالم الاسلامى كالباطنية والاسماعيلية والحشاشين والدروز» .

(٥) انظر «ضحى الاسلام» ٢/١٦ ومابعدها .

(٦) انظر «مناهج البحث العلمى» ٦ ـ ٧

(٧) مقدمة ابن خلدون ٤/١٣٤٧ ـ ١٣٥٠ ط على عبد الواحد وافى .

(٨) «كشف الظنون» ١/٣٥ .

(٩) «قواعد التحديث» ص٧ (الطبعة الاولى)

(١٠) انظر فى ذلك كتاب «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى» ص ٣١٥ لعبد اللطيف حمزة وكتاب «القلقشندى فى صبح الأعشى» لعبد اللطيف حمزة ص١٣ .

(١١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٣ .

(١٢) انظر « كشف الظنون » ١/٣٥ .

(١٣) مقدمة ابن خلدون ٤/١٣٥٢ تحقيق وافى .

(١٤) انتحى : وقف فى ناحية البيت . والمداك : الحجر الذى يداك به الطيب أى يسحق . والصلاية : الصخرة الملساء يدق بها لب الحنظل . وقد روى هذا البيت فى نسخة من نسخ الديوان . وفى بعض كتب المختارات على وجه آخر يخالف الرواية التى أثبتناها .

(١٥) ديوان امرىء القيس : ١٤ وخظاتل : كثيرتا اللحم مكتنزتان صلبتان وجاء فى « شرح الديوان » تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ص ١٦٤ : « اراد « متنتان خظاتان » فألقى النون . ودل على ذلك قول أبى دواد :

ومتنتان خظاتان　　　كزحلوف من الهضب

وقوله « خظاتان » : يعنى تين مكتنز قليلا ، وذهب الى الصلابة فى وصفه لا إلى كثرة اللحم . وقوله « كما أكب على ساعديه النمر » أراد كساعدى النمر البارك فى غلظهما » .

(١٦) الكليات ٣٠٨/٤ طبعة دمشق ١٩٧٦ .

(١٧) انظر تعليق الشيخ نصر الهوريني فى حاشية على القاموس مادة : متن .

(١٨) شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ص ١٨٨ تأليف شهاب الدين احمد الخفاجى ـ ط مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ .

(١٩) المدخل الفقهى للزرقا ص ١٩٩ .

(٢٠) طبع هذا الكتاب فى ليبزج سنة ١٨٧٦ م فى نحو ٧٠ صفحة وطبع فى مصر وذكرت نشرة مكتبة المثنى أن عبدالمنعم خفاجى حققه .

(٢١) طبع فى مصر سنة ١٢٨٩ هـ ومعه ذيل على « الفصيح » لموفق الدين البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ .

(٢٢) طبع فى دمشق لأول مرة طبعة جيدة محققة فى المكتب الإسلامى بعناية الاستاذ زهير الشاويش .

(٢٣) كتاب اللمع طبع فى الكويت سنة ١٣٩٢ هـ « ١٩٧٢ م » بتحقيق فائز فارس نشر دار الكتب الثقافية ثم طبع فى مصر بتحقيق د . حسن محمد شرف سنة ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ م نشر : عالم الكتب بالقاهرة .

(٢٤) « المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الامام أحمد » للعليمى ٥١/٢ رقم الترجمة ٦٠٨

(٢٥) كتاب « العين » للخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠هـ . وقد شرع بطبعه .

(٢٦) كتاب « الزاهر فى معانى الكلام الذى يستعمله الناس » لمحمد بن القاسم الأنبارى النحوى المتوفى سنة ٣٢٨هـ .

(٢٧) سيرة ابن اسحاق لمحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ .

(٢٨) فى « كشف الظنون » ١٩٩٦ : الواضحة فى اعراب القرآن لعبدالملك بن حبيب المتوفى ٢٣٩ .

(٢٩) انظر « المزهر » ٨٧/١ .

(٣٠) انظر « كشف الظنون » ١٦٣٥/٢ .

(٣١) انظر « الكتاب المدرسى فلسفته تاريخه اسسه تقويمه استخدامه » تأليف ابو الفتوح رضوان وعبدالحميد السيد ومحمد الهادى عفيفى ومحمد احمد الغنام .

(٣٢) المدخل الفقهى ص ٢٠٠ .

(٣٣) كشف الظنون : ٣٦/١ ، ٣٧ .

(٣٤) أصول الفقه : ٢٠ .

(٣٥) « كشف الظنون » ٣٦/١ ، ٣٧ .

(٣٦) شذور الذهب ـ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

(٣٧) كشف الظنون ـ ٣٧/١ .

(٣٨) شرح قطر الندى ١٤٧/١٤٥

(٣٩) وهذه الكتب كلها مطبوعة .

(٤٠) طبع هذا الكتاب من أمد بعيد فى الهند ، ثم طبع فى القاهرة طبعة محرفة سقيمة كثيرة الاغلاط والسقط نشر المكتبة السلفية في المدينة المنورة ويحتاج هذا الكتاب النفيس الى تحقيق وضبط .

(٤١) انظر معجمات اللغة كالقاموس ولسان العرب وانظر «شفاء الغليل» ص ٦٩ .

(٤٢)لعله يريد بالرمز ش شرح الشنوانى الكبير على الأجرومية ـ انظر حاشية السجاعى ص ٣ .

(٤٣)حاشية السجاعى ص ٥٦ .

(٤٤) حاشية الامام البيجورى على متن السمرقندية البيان ص ٢٢ طبع بولاق سنة ١٣٠٢ .

(٤٥) حاشية البيجورية على السمرقندية ٢٢ .

(٤٦) م ر فى كتب الشافعية رمز للعلامة محمد الرملى « انظر كتاب الأملاء » ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ لحسين الوالى ط المنار سنة ١٣٢٢ هـ » .

(٤٧) سم فى كتب الشافعية رمز للعلامة ابن قاسم العبادى « انظر » كتاب الإملاء ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ لحسين الوالى ط المنار سنة ١٣٢٢ هـ » .

❊ ❊ ❊

« يجب أن يعنى كل واحد منا بأمره أولاً ، وبأمر إخوانه ثانيًا ، وأن يبذل جهده في إصلاح نفسه وإصلاح إخوانه وأن يقوّم المعوج من أعمالنا وأخلاقنا ، وأن يوجه كل منا مجهوداته نحو الخطة المثلى .

«عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود»